عامي ١٩٥٤ ــ ١٩٥٦، وكان يشرف عليها الضابط المصري مصطفى حافظ، وقد تمثلت في غارات ليلية مكثفة تشنها مجموعات من الفدائيين على اهداف عسكرية اسرائيلية داخل الوطن المحتل. وقد توقفت هذه العمليات عقب اغتيال مصطفى حافظ، على يد المخابرات الاسرائيلية، وعقب العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦. وفي رأينا ان هذه الحركة، ما تزال بحاجة الى التأريخ والدراسة، وفيما يخص الادب، نرى ان قِصر فترة هذه الحركة، المقاومة المسلحة، وكون الفن القصصي الفلسطيني ــ آنذاك ــ ما يزال في مرحلته الرومانسية، المغرقة في الحزن والبكاء، التي لم تجد تجسيدها الفني، الا في قلة من القصص القصيرة، من بينها قصص غسان الأولى.

ولقد احدث انطلاق الثورة حركة وفعالية واضحتين، في صفوف الشعب الفلسطيني، اعقبها جدل واسع، شارك فيه العديد من الكتّاب، من بينهم غسان كنفاني. ان بداية المقاومة المسلحة ضد العدو الصهيوني ــ الاستيطاني بدأت تحدث خلخلة واضحة في البناء الطبقي للمجتمع الفلسطيني، اذ بدأت نماذج جديدة تحظى باحترام فئات المجتمع المختلفة، هذه النماذج، هي الطلائع التي حملت البندقية، معلنة بداية مرحلة جديدة، هي مرحلة المقاومة. ونؤكد مرة أخرى ان هذه الشخوص النوعية الجديدة، التي بدأت تحتل مواقعها المميزة في الساحة الفلسطينية، كانت مرهونة ــ ايضاً ــ بشرطها التاريخي. ولما كان غسان يواكب، فنياً، حركة مجتمعه الواقعية، فإنه لم يعرف الزيف في ادبه، انما كان «يبحث عن الحقيقة ويشير اليها، يبدأ من الواقع، من معرفة الواقع. يبحث عن معرفة الواقع كي يتسيد عليه فنياً ليتسيد عليه فعلياً فيما بعد، يعرض الواقع بشكل يدعو الى هدم ما هو سلبي فيه ويسهل هذا الهدم، يعيش ممارسته الفنية كممارسته للثورة، فيربط بين الممارسة الفنية وممارسة تغيير الواقع»(٣١). ولقد قاده البحث فنياً، عن الحقيقة الموضوعية، الى النمط الثاني من ابطاله (البطل المقاوم)، الذي يعبر عن طبيعة المرحلة وشرطها التاريخي، اذ لم تعد القضية «قضية لاجئين» يموتون «موتاً مجانياً» وهم يهربون بعيداً عن الوطن، في محاولات فاشلة لخلاص فردي موهوم، انما اصبحت قضية تحرر وطني، تهرب شخوصها، ولكن نحو الوطن الام ــ الارض، وليس بعيداً عنها، ولذلك كانت النتيجة مختلفة.

وذلك النمط من البطل المقاوم، نجده في ادب غسان، على شكلين: أ ــ البطل المقاوم في الحاضر، كنتيجة طبيعية للمرحلة التي اشرنا اليها. ويتجسد في رواية «ما تبقى لكم» ١٩٦٦. ب ــ البطل المقاوم في الماضي، قبل هذه المرحلة، ويتجلى في القسم الاول من «عن الرجال والبنادق» ١٩٦٨*. ويأتي به الكاتب بعد عامين من تجسيد الاول فنياً، كأنه يريد ان يثبت عنده صفة المقاومة، من خلال تأكيد الصفة النضالية عند شعبه، فهو ــ كمقاوم الآن ــ امتداد طبيعي لمقاومين آخرين، ضحوا بدمائهم قبله بسنوات، وهو انما يقوم بتصحيح مسار شعبه، بعد سنوات من الضياع والوهم.

---

* هذا يعني اننا ننحاز الى الرأي الذي يتعامل مع هذا القسم على انه رواية لطبيعة امتداد الحدث وتنامي موقف الشخوص.